جامعة بنغازي – كلية التّربية

مجلة كلية التربية ... العدد الحادي عشر ... إبريل 2022 م

"التشبيه في ديوان على جناح نورس" (البغدادي)

د. الصافي علي الشّيخي

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين والصلاة على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واتبع هداه إلى يوم الدين ..... وبعد

فإنّ الشعر في ليبيا يحتاج إلى كثير من الدراسات الأكاديمية والأبحاث العلمية التي تميط اللثام عن كنهه؛ لما يحتويه هذا الشعر من رؤى فنية وقضايا عميقة تجسد الواقع الليبي في كثير من جوانبه التي عاشها الشعراء وسط مجتمعاتهم وعبروا فيها عن آلامهم وأحزانهم وكذلك أفراحهم وآمالهم.

وقد استطاع الشاعر الليبي في العصر الحديث أن يصنع لنفسه موطأ قدم جنباً إلى جنب مع تجارب الشعراء العرب في المشرق والمغرب مع خصوصيته التي تميّز كل شاعر عن غيره إذ تفرض البيئة شروطها الفنية والموضوعية على الشاعر فيعبّر عن بيئته ومجتمعه الذي يعيش واقعه ويتأثر بقضاياه وهمومه.

ولأنّ ارتباطي بالشعر الليبي بدأ منذ فترة طويلة عندما أعددت دراسة لنيل درجة الماجستير في الشعر الليبي بعنوان: **"الرمز في تجربة الفزاني الشعرية"**

ثم تعمق ارتباطي بالشعر الليبي من خلال أطروحتي لنيل الدكتوراة التي حملت ـ بدورها ـ العنوان:

"شعر حسن السوسي ومحمد المهدي" دراسة أسلوبية نقدية

وقد أصبحت دراسة الشعر الليبي والبحث في صوره وأخيلته وعاطفته وتركيبه جزءاً لا يتجزأ من اهتماماتي البحثية، فقد آثرت أن أتناول في هذا البحث جانباً مهماً من جوانب الصورة عند الشاعر عبد المولى البغدادي فجاء عنوان البحث:

"التشبيه في ديوان على جناح نورس" (البغدادي)

وهو مقسم إلى مبحثين على النحو الآتي:

المبحث الأول: وظيفة التشبيه في الصورة الشعرية.

المبحث الثاني: توظيف التشبيه في ديوان " على جناح نورس " للبغدادي.

الخاتمة: وفيها ثبت بأهم النتائج التي توصلت إليها من خلال دراسة دور التشبيه في ديوان البغدادي "على جناح نورس".

أما الذي سوف أتبعه في هذه الدراسة فهو المنهج الأسلوبي الذي يصف الظواهر الفنية في الأعمال الأدبية.

والله ولي التوفيق

expressed their pain and sorrows as well as their joys and hopes.

The Libyan poet in the modern era was able to make himself a foothold alongside the experiences of Arab poets in the East and the Maghreb, with his specificity that distinguishes each poet from others, as the environment imposes its technical and objective conditions on the poet, so he expresses his environment and society in which he lives his reality and is affected by his issues and concerns.

And because my association with Libyan poetry began a long time ago when I prepared a study for a master's degree in Libyan poetry entitled:

"The Symbol in Al-Fazani's Poetic Experience."

Then my connection with Libyan poetry deepened through my doctoral thesis, which in turn bore the title:

"The Poetry of Hassan Al-Susi and Muhammad Al-Mahdi",

a critical stylistic study The study of Libyan poetry and the search for its images, fantasies, emotion and composition have become an integral part of my research interests. "Similarity in a Diwan on a Gull's Wing" (Al-Baghdadi) It is divided into two sections as follows:

The first topic: the function of analogy in the poetic image.

The second topic: the use of analogy in the book "On the Wing of a Seagull" by Al-Baghdadi. Conclusion: In it, it is proven with the most important results that it reached through studying the role of metaphor in Al-Baghdadi's Diwan "On the Wing of a Seagull".

What I will follow in this study is the stylistic approach that describes artistic phenomena in literary works. God grants success

المبحث الأول

التشبيه: التشبيه باب من أبواب البلاغة الكبرى، أثنى عليه النقاد قديماً وحديثاً، لما له من أثر عظيم في بناء الصورة الأدبية، ورسم اللوحة الفنية الرائعة المؤثرة في العواطف والمشاعر الإنسانية، ويضفى التشبيه بهاءً وجلالاً على الأسلوب، ويمنحه الطرافة، والجدة والابتكار، ويخلع عليه سمات القوة والمتعة والحركة والنشاط .

التشبيه لغة واصطلاحاً:

التشبيه في اللغة مأخوذ من الشبه والتشبيه بمعنى التمثيل. ينظر، ابن منظور، لسان العرب ، مادة شبه ، وفي الاصطلاح يراد به إلحاق أمر بآخر في صفة مشتركة بينهما ، لغرض يقصده المتكلم ويرمي إليه ينظر، فيود،1989 : 99 ، ولأنه يساعد على تجلية المعنى الخفي ، وإدناء البعيد ، كما يعين على توضيح المعنى ، وتقريبه بصورة موجزة وجميلة ، شهد عناية الدارسين ، فكشفوا حقيقته ، وحددوا أقسامه ، وأغراضه ، ولعل المبرد من أوائل العلماء العرب الذين قاموا بتناول التشبيه من زواياه المختلفة ، موضحاً الحسن منه والقبيح ، دون أن يعلل سبب ذلك ، بخلاف ابن رشيق القيرواني الذي حدد أقسام التشبيه وعرّفه بقوله إنّ : " التشبيه ، صفة الشيء بما قاربه ، وشاكله ، من جهة واحدة أو جهات كثيرة ، لا من جميع جهاته ، لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه " القيرواني ،1964: 1 /241 ، ثم جاء

عبد القاهر الجرجاني ، وقد عني بالصورة التشبيهية ، فدرسها دراسة متأنية في كتابه (أسرار البلاغة) ، تكشف عن ذوقه الرفيع بسائر الفنون البيانية حيث خصّه بفصول عدة ، معرّفاً إياه بقوله: " التشبيه، أن يُثْبَت لهذا معنى من معانى ذاك، أو حكماً من أحكامه كإثباتك للرجل شجاعة الأسد ، وللحجه حكم النور " الجرجاني ، د ت : 267 .

يقول الجرجاني عن التشبيه: " إنه من الأمور المعلومة أن الشيء لا يشبّه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات إذ الشيئان إذا تشابها من جميع الوجوه ولم يكن بينهما تغاير البتة اتحدا، وصار الاثنان واحداً لا يكون هناك تشبيه، لأنّ التشبيه بقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما ويوصفان بهما، وافتراق في أشياء يتفرد كل واحد منهما بصفتها، وإذا كان الأمر كذلك ما أوقع بين الشيئية اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها، حتى يدني بهما إلى حال من الاتحاد" الجرجاني، دت : 181 . وهي رؤية متبصرة من عالم جليل للصورة التشبيهية، حيث تثبت بعض أحكام المشبه به أو إحداها للمشبه؛ للرفع من قيمته، أو للنيل منها، وهو هنا يضع الشروط اللزمة لبناء الصورة التشبيهية على وجه صحيح.

وإذا كان عبد القاهر الجرجاني، قد أفاض في تحليلاته الفنية، فإنّ لفيفاً من البلاغيين المتأخرين، استهوتهم التقسيمات، ووضع التعريفات، ويأتى على رأس هؤلاء أبو يعقوب السكاكي إذ عرّف الصورة التشبيهية بقوله: " إنّ التشبيه مُسْتَوْدع طرفين، مشبهاً، ومشبهاً به، اشتركا من وجه، وافترقا من آخر " السكاكي ،2002: 439 . ثم جاء الخطيب القزويني واختصر هذا المفهوم للتشبيه بقوله: إنّ التشبيه هو " إلحاق شيء بآخر، بينهما صفة مشتركة " القزويني، دت : 135.

أهمية التشبيه ووظيفته:

إنّ الدارسين لأسلوب التشبيه لم تنحصر جهودهم في هذا المجال حول تحديد المفاهيم والأقسام فحسب بل امتدت إلى النظر في عناصره المتمثلة في أركان التشبيه : المشبه ، والمشبه به ، والأداة ، ووجه الشبه ، فكشفوا حقيقتها ، وأسهبوا في الحديث عن الركنين الأساسيين : المشبه ، والمشبه به ، فوضعوا تصانيف متعددة للتشبيه حين يفقد ركناً من أركانه الأساسية وهي الأداة ، ووجه الشبه ، كما وضعوا تصانيف للتشبيه حين يكون مكتمل الأركان ، أو حين يفقد أحد أركانه وتبقى بقية الأركان ، ثم عكفوا على الشعر العربي يستنبطون منه الشواهد الدالة على حسنه أو قبحه ، كما وقفوا على بدائع التشبيهات عجيبه وغريبه. ولم تقف جهود العلماء عند هذا الحد، بل راحوا يوضحون المزايا البلاغية المختلفة للصورة التشبيهية، من خلال أنواع التشبيه التي ألح الكاتب على استخدامها.

ولا شك أنّ التشبيه مسلك بياني شهد عناية خاصة، ومكانة متميزة لدى شعراء العربية منذ بدايات الشعر الأولى في العصر الجاهلي، حيث كثر وروده في أشعارهم؛ لما له من رونق وجمال داخل النص الأدبي؛ مما جعل صاحب الإيضاح يشيد بأهميته قائلاً " وإذ قد عرفت معنى التشبيه في الاصطلاح،

فاعلم أنه مما اتفق العقلاء على شرف قدره، وفخامة أمره في فن البلاغة، وأن تعقيب المعاني، لا سيما قسم التمثيل منه، يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها، مدحاً كانت أو ذماً أو افتخاراً " القزويني، دت: 136.

ولذلك كله كان التشبيه يتصدر مجالس الشعراء في حضرة الأمراء والخلفاء، حيث كانوا كثيراً ما يتدارسون أقوال الشعراء فيه، هذا يفضل قولاً، وذاك يفضل آخر، بعد قيامهم بالموازنة بين تلك الأقوال حسب المعايير النقدية لكل عصر، وهكذا لعبت الصورة التشبيهية دوراً مهماً في مفاضلة النقاد بين الشعراء. ينظر، عباس، 1987: 153

إنّ أسلوب التشبيه لا يخص اللغة العربية وحدها ، وإنما تجده واضحاً في سائر اللغات ، كما أنه من أقدم صور البيان ، وأقربها إلى الفهم ، وهو وسيلة شعرية طريفة ، يستحضر المبدع بواسطتها العلاقات التخيلية بين المتماثلات ؛ ولذلك مالت إليه القلوب ، واهتزت له النفوس إعجاباً وطرباً ينظر، الخويسكي والمصري،2004 :13 ، فغدا بذلك أكثر جماهيرية وتأثيراً في النفوس ، متفوّقاً في ذلك على أساليب البيان الأخرى ، ولما كان أسلوب التشبيه ذا قدرة بالغة على إحداث التقارب بين الأشياء ، فقد عد عنصراً فعالاً في الإبداع الأدبي ، لأنّ عمل الأديب يقوم على عقد الصلة بين الأشياء المحيطة به ، قصد تحقيق فائدة ، أو غاية يتطلبها النص ينظر، عطية، 2004: 174 .. فإذا لم تنعقد هذه الصلة بين الأشياء، ولم تتحقق الفائدة أو الغاية التي يتطلبها النص من التشبيه كان ذلك إخفاقاً في عمل الشاعر الذي لم تسعفه المقدرة اللغوية أو الملكة الشعري لكي يستطيع الربط بين الشيئين المتشابهين عندما أخفق في عقد صلة مناسبة بينهما.

إنّ دور التشبيه هو تمثيل المعاني المعقولة محسوسة حيث تؤدي وظيفتها في تحريك النفس ، وتوضيح المعنى بغد نقله إلى العيان حياً ، وفي ذلك يقول الجرجاني " إنّ أنس النفوس موقوف على تخرجها من خفي إلى جلي ، وتأتيها بصريح بعد مكنى ، وأن تردها في الشيء لعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم ، وثقتها به في المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ، وعما يعلم بالفكرة إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، لأنّ العلم المستفاد من طريق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكرة في القوة والاستحكام ، وبلوغ الثقة في غاية التمام ، وكما قالوا ليس الخبر كالمعاينة ، ولا الظن كاليقين ، فلهذا يحصل لهذا العلم هذا الأنس ، أعني الأنس من جهة الاستحكام والقوة ..... ومعلوم أنّ العلم الأول أتى للنفس عن طريق الحواس والطباع، ثم من جهة النظر والرؤية، فهو إذن أمس بها رحماً، وأقوى لديها ذمماً، وأقوى لها صحبة، وآكد عندها حرمة، وإذا نقلتها في الشيء بمثله عن المدرك بالعقل وعلى حد الضرورة ، فأنت كمن يتوسل إليها للغريب بالحميم وللجديد الصحبة بالحبيب القديم" الجرجاني، 1994 : 108 ـ 109.

ومن ذلك يتضح أنّ بيان المعاني أمام الأعين، وفي الأذهان يعود إلى القدرة الدلالية التي يمتلكها التشبيه في إخراج المعاني من الخفي إلى الجلي مع اقتران الجانب المعنوي بالجانب الحسي إذ إنّ العلاقة بين المشبه والمشبه به تجعل المعنى الدلالي عرضة للتنويع المستمر؛ وذلك لاشتراك السياق في هذه العلاقة التي يمكن أن نطلق عليها اسم العلاقة التآزرية.

ثم إنّ التشبيه يملك قدرة تصويرية لا يتمتع بها سواه، يوضحها الخطيب القزويني بقوله " ومن الدليل على أنّ للإحساس من التحريك للنفس، وتمكين المعنى ما ليس لغيره، أنك إذا كنت وصاحب لك يسعى في أمر على طرف نهر، وأنت تريد أن تقرر له: أنه لا يحصل من سعيه على طائل، فأدخلت يدك في الماء ثم قلت له: انظر هل حصل في كفي من الماء شيء؟ فكذلك أنت في أمرك، كان لذلك ضرب من التأثير في النفس، وتمكين للمعنى زائد في النفس عن المعنى المجرد " القزويني، دت: 323 . يضاف إلى ذلك أنّ التشبيه لا يقتصر على توليد القوة الدلالية، والتأثير اللغوي الحاصل في هذه العلاقات، ذات الطبيعة الثنائية للمشبه والمشبه به فقط إنما هو فوق ذلك كما يقول كولريدج عن التشبيه " تلك القوة التركيبية التي تشيع نغماً وروحاً، يمزج ويصهر الملكات إحداها بالأخرى، هذه القوة التي تكشف عن نفسها في توازن الكلمات المتنافرة، وإشاعة الانسجام بينها ... إنه تنسيق فائق العادة" مكليش، 1963: 53 .

التشبيه إذن عملية أدائية، حصلت أو تحصل نتيجة تآلف معنوي وصوتي من العلاقة التآزرية في طرفي التشبيه، الغرض منها توضيح هوية النص، وكشف أسراره المعنوية، وهذه تحديداً وظيفة التشبيه؛ لذا نجد في القرآن الكريم كثيراً من التشبيهات لتجلية المعاني، وتقريبها إلى الأذهان، قصد الفهم والإفادة، وتشكيل الصور المختلفة في وعي المتلقي والسامع ينظر حسين، 2007: 129، ففي قوله تعالى: { إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين } سورة الشعراء ، الآية : 4 ،أي كالخاضعين. .

إنّ هذا التوظيف للتشبيه في القرآن الكريم يكشف عن عظمة تلك الآيات ومكانتها الرفيعة من خلال حضور معناها في النفوس ، ففي قوله تعالى: { و يا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد } سورة هود الآية : 89 ، أي لا تحملنكم عداوتي على مخالفة ربكم ؛ وبذلك يصيبكم من العذاب مثل ما أصاب قوم نوح من الهلاك حينما أغرقهم الله بالطوفان ، وما أصاب قوم هود الذين أهلكهم الله بالريح العقيم ، وانظروا في حال قوم صالح الذين أخذتهم الرجفة فلم تبقِ منهم باقية ، كذلك تأملوا في حال قوم لوط الذين عد الله ـ عز وجل ـ زمنهم قريب من زمنكم أي زمن قوم نبي الله شعيب حتى ينظروا في آثارهم التي خلفوها وراءهم ، وما تبقى من ديارهم التي أصبحت أثراً بعد عين ، حيث حلّ عليهم غضب من الله بما كانوا يرتكبون من

معاصٍ وآثام يندى لها الجبين ، ويمجها الذوق ، وتلفظها الفطرة البشرية السليمة ينظر، ابن عاشور، دت، 12 / 146 ـ 147.

هكذا يشعر المتلقي أن التشبيه خلق إيحاءً نفسياً للفظ القرآني، وهذا الإيحاء الناجم عن التشبيه أوجد جوانب إيجابية أسهمت ـ بدورها ـ في تفعيل المعنى وزيادة دلالاته من خلال التوظيف الفني للتشبيه في النص القرآني، وقد أدى ذلك إلى زيادة التقارب بين المعاني نفسها لكي تزداد شموليتها، وتصبح بعيدة عن الانغلاق الذي يجافي طبيعة الدور المناط بالتشبيه.

يتضح من كل ما سبق أنّ التشبيه يلعب دوراً بارزاً في تشكيل الصورة ، ورسم ملامحها المختلفة ، مما جعل الشعراء قديماً وحديثاً يقبلون عليه ، ويوظفونه بكثرة لا تغيب عن نظر القارئ البسيط في أشعارهم ، حتى لا تكاد تخلو قصيدة من قصائدهم من التشبيه ، لاسيما إذا كانت في فن الغزل ، أو الرثاء ، أو المديح ، أو الحماسة والفخر ، أو الحنين ، وذلك لماله من علاقة وطيدة وصلة حميمة بكل ما هو وجداني وإنساني ينظر، العسكري، 2008 :205 ، وتعود أسباب ولوع المبدعين بالتشبيه إلى جملة من الأغراض والفوائد الجمالية التي تتحقق لهم بفضله وفي مقدمتها : الإيجاز ، والمبالغة ، والكشف عن المقصود بطريقة واضحة ، مما جعل أبا هلال العسكري يقول عنه : " التشبيه يزيد المعنى وضوحاً ، ويكسبه تأكيداً ، ولهذا أطبق جميع المتكلمين ، من العرب ، والعجم عليه ، ولم يستغن أحد منهم عنه "العسكري، 2008 :216. بل إنّ الكثير من الباحثين يجمعون على أنّ التشبيه من أكثر أساليب علم البيان تأثيراً في النفس، إذ ينقلها من المعقول إلى المحسوس، ومن الفكرة إلى الفطرة، ومن الغموض إلى البديهة، وبذلك تزول أسباب شكوكها بحجته وقدرته على الإقناع، ويتلاشى ما يدور في داخلها من أوهام. ينظر، عباس، 2007: 259.

إنّ هذه الوظيفة، وغيرها من الوظائف، التي يؤديها أسلوب التشبيه، جعلت الدارسين يؤكدون على أهميته، بخاصة بالنسبة للمعاني، مثلما يظهر جلياً في قول الزمخشري " لضرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيئات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى يريك المتخيل في صورة المحقق، والمتخيل في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد " الزمخشري،1946 : 37 . وقد تنبّه النقاد العرب المحدثون إلى أهمية التشبيه ، وحاولوا الكشف عن أسراره البلاغية ، فرأى أحدهم أنّ سر بلاغة التشبيه ، وروعة أسلوبه تكمن في أنه " ينتقل بك من الشيء نفسه ، إلى شيء طريف يشبهه ، وصورة بارعة تمثله ، وكلما كان هذا الانتقال بعيداً ، قليل الخطور في البال ، أو ممتزجاً بقليل أو كثير من الخيال ، كان التشبيه أروع للنفس ، وأدعى إلى إعجابها " الجويني، 1993، ص : 33 ، في حين يرى ناقد آخر من المحدثين أن قيمة الصورة التشبيهية تتحدد من خلال الجوانب المتعددة التي تتعامل معها فيقول: إنّ " الصورة التشبيهية تتعامل مع الواقع المحسوس بأبعاده ، ومع الجوانب التجريدية الفكرية ، ومع أعماق الإحساس النفسي الداخلي ، وهي تتوزع بحسب المواقف

الانفعالية " الدابة، 1996 : 92 . أي أنّ الصورة التشبيهية بجوانبها المختلفة من حيث الربط بين المشبه والمشبه به تبنى وتولد من رحم معاناة الشاعر.

فالتشبيه ـ إذن ـ من أساليب القول وفنونه، جيء به ليؤدي رسالة بلاغية ذات أثر؛ ولأجل هذه الغاية يكثر التشبيه في كلام المولى ـ عز وجل ـ، وفي كلام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، بالإضافة إلى الكلام البليغ للأقدمين والمحدثين بعد أن أدركوا دوره الجليل في إيصال المعنى وتأكيده، إذ راحوا يعقدون الصلات باستعمال التشبيه بين الأشياء، فجاءت على أيديهم نماذج من أحسن التشبيهات التي قدمت لنصوصهم فوائد بلاغية ذات قيمة فنية عالية. ولما كان الإبداع الأدبي يقوم على المادة اللغوية ، التي يتألف منها وينتظم بها لسان القوم ، فإنّ أساليب الخطاب ، وطرائق التعبير ـ ومنها التشبيه ـ ستكون ذاتها بالنسبة للمبدع ، الذي يستعمل ما هو موجود لديه من حصيلة لغوية ؛ لكي يقدم للمتلقي صوره البلاغية في هيأة فنية يتميّز بها عن غيره ، ولا يكون التشبيه في ذلك استثناءً ، إذ يحاول المبدع أن يوظفه توظيفاً فنياً لا يخل بالمعنى ، ويضفي على النص النكهة الفنية ، التي تجذب قلب وعقل القارئ ، ولكن هذا لا يعني نجاح جميع من يكتب نصاً أدبياً في توظيف جماليات التشبيه لصالح النص ، إذ ربما لم تكن الصلة قوية بين المشبه والمشبه به ، فيؤدي ذلك إلى هنّات فنية داخل النص ، لا تغفل عنها عين الناقد ، ولا تستسيغها ذائقة القارئ ، وربما جيء بالتشبيه بهيأة فنية غير مناسبة ، لا تخدم فكرة النص .

أثر التشبيه في بناء الصورة:

يسهم التشبيه في رسم الصورة الفنية بشكل لا يقل عن غيره من الأدوات التي تشاركه في هذا الأمر ؛ لأن ارتباط الدلالة بالتشبيه له أثره الواضح في تجليات المعنى ، وازاحة الغموض عنه بوصفه عنصراً أساسياً في بناء ورسم الصورة الفنية التي ترقى إلى المستوى المطلوب من لدن النقاد ، وأفضل التشبيهات " ما إذا عكس لم ينتقض ، بل يكون كل شبه بصاحبه مثل صاحبه ، ويكون صاحبه مشبهاً به صورة ومعنى ، وربما أشبه الشيء الشيء صورة وخالفه معنى ، وربما أشبهه معنى وخالفه صورة " ابن طباطبا،1984: 11. يضاف إلى ذلك أنّ المستوى الرفيع الذي يخلقه التشبيه في رسم الصورة هو من أهم عوامل اهتمام العرب بالتشبيه اهتمام العرب بالتشبيه؛ لانسجامه مع فلسفتهم الجمالية فهو رافد مهم من روافد بناء الصورة الفنية، ورسم ملامحها في النظرية الشعرية العربية القديمة ينظر، الرباعي، 1984: 52.

ويؤكد الدارسون أنّ التشبيه يزداد حسناً وجمالاً كلما كانت العلاقة متباعدة بين طرفيه لأنك إذا " استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كان إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب ، وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب ، وذلك أنّ موضع الاستحسان ، ومكان الاستظراف، والمثير للدفين من الارتياح ، والمتآلف للنافر من المسرة ، والمؤلف لأطراف البهجة أنك ترى

بها الشيئين مثلين متباينين ومؤتلفين مختلفين ، وترى الصورة الواحدة في السماء والأرض ، وفي خلقة الإنسان ، وخلال الروض " الجرجاني، د ت: 116 . من ذلك نستطيع القول أنّ الصورة التشبيهية تضرب بسهم وافر في ثراء المعاني واتساعها، وتقدم للقارئ الصورة الفنية في أبسط صورة ممكنة دون أن يكون ذلك على حساب جماليات الصورة التي يجب أن تتوافر لها.

هذا يعني أنّ التشبيه لا يقتصر دوره على إلحاق أمر بأمر؛ بسبب صفة زادت في المشبه به على المشبه فقط ، وإنما يمكن للتشبيه أن يلعب دوراً في المقارنة بين الأشياء المتباينة ، أو الأحوال المختلفة نحو قوله تعالى مصوراً حال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة: { وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون } سورة التوبة ، الآية : 68 ـ 69.

لم يكن الغرض من التشبيه في الآيتين الكريمتين السابقتين إلحاق الناقص بالكامل ، ولم يكن الغرض منه تجلية المعنى وإنما هي عملية مساواة بين حالتين مجتمعتين على النفاق والشرك على الرغم من الفصل الواضح في الآيتين بين النفاق والكفر ؛ لكي يبين ـ من خلال ذلك ـ أن الوعيد الوارد في الآيتين واقع على الصنفين المذكورين كليهما ، وقد ذكر المولى ـ عز وجل ـ المنافقين والمنافقات مع الكفار لكي تكتمل الصورة العقابية التي تضمهم جميعاً ، وهو خلودهم في نار جهنم التي وعدهم الله بها في الدنيا ، راسماً صورةً لمن كانوا قبلهم ممن امتلكوا كل ما أمكنهم من وسائل البأس القوة ، وكان لديهم الكثير من الأموال والأولاد ، ولكن كل هذه القوة والمنعة لم تكن لتنقذهم من عذاب الله ، ثم يعود إلى توجيه الخطاب إلى هؤلاء وهم أضعف وأقل أموالاً وأولاداً من الصنف الأول ، يخاطبهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ مصوّراً لهم حال من هم أقوى منكم وأهلكهم الله ، فكيف بهم وهم على تلك الحال من الضعف والهوان وارتكبوا الآثام نفسها التي ارتكبها أولئك ، وقد كان التشبيه هنا للدلالة على أنّ إمهال الله ـ سبحانه وتعالى ـ للمشركين في الأزمنة السابقة لم ينجهم من عذابه ، وهو ما ما ينطبق تماماً على كل من شابههم في أحوالهم ، وسار على نهجهم من الأمم التي تليهم ينظر، ابن عاشور، د ت ، 10/ 252 وما بعدها.

هذه المماثلة التي خلقتها الصورة التشبيهية الغرض منها المساواة بين صنفين من الناس في أزمنة مختلفة، وأنّ الكفار ـ في كل زمن ـ ذوو طبيعة واحدة هي الجدال والعناد، وبذلك نقترب من تعريف التشبيه القائل أنّ التشبيه هو " المقارنة المعقودة بين أمرين في صفة زاد أحدهما على الآخر منها ".

هكذا يكشف أسلوب التصوير في التشبيه دلالتين اثنتين: أحداهما: المقارنة بين صنفين، والثانية: الوصف غير المباشر، وهذه الدلالة الثانية ناشئة عن الأولى، ومرتبطة بها، فنحن عندما نعمد إلى تشبيه

شيء بشيء إنما نعقد بينهما نوعاً من المقارنة في الظاهر، وهي مقارنة لا تهدف إلى تفضيل أحد الشيئين عن الآخر، وإنما تهدف المقارنة إلى وصف أحد المقارنين بما اتصف به أحدهما، وقد اجتمعت الدلالتان في التشبيه المشار إليه في الآيتين السابقتين.

البيئة والتشبيه:

لم يفت الدارسون العرب وهم يبحثون التشبيه ، ويحددون حقيقته وأنماطه الحديث عن المصدر الذي يستقي منه مادته ، ويستمد منه عناصره ، وقد كان ابن طباطبا العلوي واحداً من أولئك النقاد الذين التفتوا إلى هذا الأمر ، فقد ذكر أن المنبع الذي يرجع إليه الشاعر ، أثناء تركيبه للصورة التشبيهية هو البيئة التي تحيط به ، بكل ما فيها من موجودات فقال : " واعلم أنّ العرب أودعت أشعارها من الأوصاف ، والتشبيهات ، والحكم ، ما أحاطت به معرفتها ، وأدركه عيانها ، ومرت به تجاربها ، وهم أهل وبر ، صحونهم البوادي ، وسقوفهم السماء ، فليست تعدو أوصافهم ما رأوا منها وفيها " ابن طباطبا،1984: 48.

فالشاعر ـ إذن ـ في خلق تشبيهاته ينطلق من محيطه، ومما وقع عليه بصره داخل بيته، إذ توفر له المادة التي يشكل منها مختلف صوره الشعرية، ونتيجة لذلك جاء التشبيه في كل عصر متأثراً ببيئة الشاعر، وخاضعاً لها، تضفي عليه كل سماتها، وتمنحه جميع خصائصها، فهو ـ أي التشبيه ـ " فن من فنون التعبير الشعري ، أولع به الشعراء منذ الجاهلية ، فوافق طبائعهم ، وجاء مستمداً من بيئتهم البدوية " الحويني، 1993: 95 .

ولأنّ الطبيعة معين شعري لا ينضب ، نراها تشكل أهم ملمح بيئي في الشعر العربي ، فقد اتخذ منها الشاعر العربي أداة فنية يعبّر من خلالها عن مشاعره وأحاسيسه ، ويرسم بها صوره الشعرية ، سواء أكانت تلك الصور تشبيهية ، أو استعارية ، أو كنائية ، ولا غرابة في ذلك ؛ لأنه ما من شاعر يستطيع أن يرسم لوحاته الفنية بمنأى عن الطبيعة ، فهي تمنح الإبداع الشعري طاقة وحيوية فنية لا تضاهى وما من شك أنّ الشاعر العربي كان ولايزال شديد الصلة بالطبيعة بكل ما تحمل من مؤثرات ، كثير الاحتكاك بمظاهرها المختلفة من حوله ، فهو يلامسها في حلة وترحاله ، حتى إذا كان صاحب إبداع ، عاد إلى ما التقطته عيناه من مشاهد طبيعة ، وراح يمزجها ويغلفها بإحساسه ، ومشاعره ، وذوقه الخاص ، وهذا ما تؤكده الشواهد الشعرية الخاصة بشعراء العربية منذ العصر الجاهلي وحتى عصرنا هذا .

يخضع التشبيه ـ بداهة ـ للبيئة المحيطة بالشاعر ويتأثر بها، مما يجعلها تتحكم في الصورة التشبيهية عنده، وتسبغ عليها الكثير من سماتها، وتمنحها العديد من خصائصها، وقبل نزول القرآن الكريم كان الشعر العربي يستمد تشبيهاته من البيئة الطبيعية المحيطة به كالليل والكواكب والحيوانات،

ويذخر ديوان العرب بالكثير من الأدلة على الدور الذي تلعبه الطبيعة في رسم الصورة التشبيهية عند شعراء العربية قديماً وحديثاً، من ذلك قول النابغة الذبياني:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

تشكل صورة التشبيه في بيت النابغة الذبياني السابق من البيئة الطبيعية التي تحيط بالشاعر، فقد شبّه الشاعر الملك النعمان بن المنذر بالليل الذي يدرك الإنسان أينما حلّ على هذه الأرض، فلا مفر لأحد من الليل، وكذلك الممدوح الذي لا يستطيع أحد الفرار منه؛ لأنه سيدركه حيثما حل كما يدرك الليل الجميع ، وقد كان لطبيعة تعاقب الليل والنهار اليد الطولى في التعبير عما يدور في خلد الشاعر النابغة الذبياني . ويرى عبد القاهر الجرجاني أنّ التشبيه " يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى ....يري للمعاني المتمثلة بالأوهام شبهاً في الأشخاص الماثلة والأشباح القائمة ، وينطق الأخرس ، ويعطي البيان من الأعجم ، ويرى الحياة في الجماد ، والتئام عين الأضداد ، ويأتي بالحياة والموت مجموعين ، والماء والنار مجتمعين " الجرجاني، 1994: 148 .

المبحث الثاني: التشبيه في ديوان " على جناح نورس "

وظّف الشاعر عبد المولى البغدادي التشبيه في قصيدته " أطفال ورجال" مستفيداً من تقنيات التشبيه في رسم صورة التناقض الذي أصبح واضحاً بين جيل رضي بالذل والهوان وجيل يرفض الرضوخ، ويطالب بنيل حريته، فالجيل الجديد ثائر، مناضل، يقاتل من أجل حقوقه، ويقف في مقابل ذلك جيل رضي بالاستكانة، وأغضى على الذل شبههم الشاعر هنا بالعانس التي استسلمت لمصيرها، وظلت تنتظر ما يقرره الآخرون بشأنها، فهم من وجهة نظر الشاعر يعيشون فقط بين "لعل" و"عسى" يقول البغدادي:

أطفالنا أكثرنا رجولة

يا ليتنا لم نبرح الطفولة

تنطلق اللاءات من صدورهم قنابلا

فتنسف الأحجار من أكفهم معاقلا

ويصبح الرضيع ـ يا لجبننا ـ مقاتلا

ونحن من خلف الستور نختبئ

كأننا عوانس الجواري في مخدع الحريم

ونعلك الهوان والأسى

ونحتسي خمر لعل وعسى

البغدادي،1999: 113

ومن استعمالات البغدادي لتقنيات التشبيه ما ورد في قوله على لسان أحد الأطفال الذين تمردوا على الواقع، فقد استطاع الشاعر أن يبيّن عبر الصورة التشبيهية مدى التناقض والهوة الكبيرة التي أصبحت ظاهرة بين هذه الأجيال شبهها الشاعر بالفرق بين الليل والنهار ، فهذا جيل يشبه النهار وذاك جيل يشبه الليل، بل عدّه الشاعر توأمه الذي بحيث يصعب التفريق بينهما:

وأنتم يا إخوتي ويا أبي

لا تحفلوا بمأكلي ومشربي

لا تلصقوا نسبكم بنسبي

لا تحشروا مذهبكم في مذهبي

فأنا وأنتمُ ــ معاشر الكبار ــ

كالليل والنهار

فأنتمُ والليل توأمان

ونحن والنهار توأمان

البغدادي، 1999: 114 .

ومن توظيف الشاعر عبد المولى البغدادي للتشبيه ما ورد في قوله:

مـــاذا ســـأختار يـــا زهـــر الريـــاحين إلـــى الزراعـــة فـــي العيـــد الثلاثـــين

أهمســـة فـــي شـــفاه الـــورد أرســـلها إلـــى الأحبـــة مـــن حضـــن الريـــاحين

يـــا فتيـــة الخيـــر لا كلـــت ســـواعدكم ولا اســـتكنتم لتســـويف وتخمـــين

أنـــتم شـــرايين هـــذا الكـــون فالتمســـوا إرادة الله تســـري فـــي الشـــرايين

البغدادي، 1999: 371 .

يتحدث الشاعر في الأبيات السابقة عن الزراعة والمزارعين، مستخدماً معجماً لفظياً مستمداً من الطبيعة التي تمثلها هذه الفئة من الناس مثل:(زهر ـ فتية ـ الزراعة ـ الورد ـ الرياحين ـ سواعدكم ـ شرايين) حيث عبّرت كل لفظة من ألفاظه المتنوّعة على الحقل المعجمي الذي يتحدث عنه الشاعر.

وقد شبّه الشاعر القائمين على الزراعة بأنهم شرايين الكون فكما تمد الشرايين الجسد بالطاقة اللازمة التي يحتاجها ليتمكن من البقاء كذلك يفعل المزارعون في هذا الكون الفسيح حيث يعتمد العالم عليهم في تأمين غذائه المتنوّع.

ومن استعمالات البغدادي للتشبيه ما ورد في قصيدة يرثي فيها الشاعر الكبير نزار قباني يقول فيها:

لا علينـــــــا إذا بكتنـــــــا الليـــــــالي بعـــــد أن غـــــاب نجمهـــــا وتـــــوارى

الملاييـــــــين أســـــــلمته هواهـــــــا لـــــم يكـــــن "قيصـــــراً" ولا "شـــــهريارا"

والملايـــــــين وحـــــــدها صـــــــقلته مثلمـــــا يصـــــقل النَّضـــــار النُّضـــــارا

يـــــا أبـــــا الشـــــعر والمشـــــاعر حيـــــرى والعبـــــــارات كلهـــــــن حيـــــــارى

البغدادي، 1999: 348 .

يستدعي الشاعر عبد المولى البغدادي غرض الرثاء في القصيدة التي تنتمي إليها الأبيات سالفة الذكر فهو يرثي شاعراً كبيراً، صاحب باع كبير من حيث أسلوبه الفني، ومواقفه الداعمة للقضايا العربية في كل مكان من العالم العربي، وقد عبّر عن فداحة المصاب الذي حلّ بالعروبة بفقدانها للشاعر نزار قباني الذي شبّهه بالسيف المهند المتقن الصنع باحترافية شديدة من قبل ملايين الناس الذين أحبوا شعره، وعبر هو ـ بدوره ـ عن آمالهم وآلامهم.

ومن توظيف الشاعر عبد المولى البغدادي لتقنيات التشبيه واصفاً الشكل الذي ينبغي أن يكون عليه الشعر ما ورد في قوله:

إنمـــــا الشـــــعر زفـــــرة مـــــن لهيـــــب قدســـــــي تعـــــــانق الأقـــــــدارا

وتحيـــــل الأنـــــين واليـــــأس حبـــــاً مـــــــارداً فـــــي قلوبنـــــا جبـــــارا

البغدادي، 1999: 349.

تحل الصورة التشبيهية في النص السابق في قول البغدادي (الشعر زفرة من لهيب) وهو تعبير صادق عن الشكل الذي ينبغي أن يكون عليه الشعر إذ هو تعبير عن لحظات مملؤة بالشغف والحزن والألم فيجب أن يكون محمّلاً بشحنات ملتهبة تستشعر روح الشاعر ، وتعبّر عن معاناة القارئ الذي يحتاج لتلك الزفرة الملتهبة .

ومن توظيف البغدادي للصورة التشبيهية ما ورد في قوله مخاطباً الشاعر نزار قباني، ومصوّراً مكانة هذا الشاعر الكبير بين شعراء العربية؛ نظراً لما امتازت به تجربته الشعرية التي امتزجت بمواقف ثابتة فيما يتعلق بالقضايا العربية من المحيط إلى الخليج:

البنـــــاة العظـــــام كيـــــف يموتـــــون فلـــــن تقهـــــر الرمـــــال البحـــــارا

(ثـــــاني اثنـــــين: أنـــــت والمتنبـــــي) طبتمـــــا صـــــحبة ومجـــــداً وغـــــارا

وشـــــغلت الـــــورى ونمـــــت قريـــــراً آمنـــــاً مثلـــــه تتيـــــه افتخـــــارا

المحبـــــون ينهلونـــــك فيضـــــا قدســـــياً يشـــــع نـــــوراً ونـــــارا

ورأوا فيـــــك قمـــــة لا تضـــــاهى وأميـــــراً وفارســـــاً لا يضـــــاهى

والمعـــــادون أنكـــــروك وجـــــوداً مثلمـــــا أنكـــــر اليهـــــود النصـــــارى

ويصـــــرون مثلمـــــا قـــــوم نـــــوح قـــــد أصـــــروا واســـــتكبروا اســـــتكبارا

البغدادي، 1999: 352: 353.

يستثمر البغدادي ميزات الصورة التشبيهية؛ ليرسم صورة متميزة لمكانة الشاعر نزار قباني لديه فهو البحر الذي لا تستطيع الرمال (المنتقدون) أن ينالوا من وجوده واتساعه وقوته، وهو يشبهه بأبي الطيب المتنبي في التيه والفخر والاعتزاز بنفسه وبشاعريته، وأن كل منهما شغل الناس بما قدمه من صور فنية لم تكن مطروقة قبلهما.

ويستمر البغدادي في تقديم نزار قباني إلى القرّاء موظّفاً الصورة التشبيهية متّخذاً منها وسيلته في إيصال الصورة بأبعادها المختلفة، فهو الأمير والفارس الذي لا يشق له غبار في شاعريته التي فاق بها شعراء عصره.

لقد أشعل نزار قباني عصره بطريقته التي كان لها وقع الصدمة على الكثيرين في ذلك الوقت، وانقسم الناس من حوله إلى فريقين: محبين ومعارضين وهؤلاء شبههم البغدادي باليهود والنصارى الذين رأوا الحق جلياً ولكنهم أصروا على عنادهم ثم أوغل في تشبيههم بصورة أخرى حين شبّههم بقوم نوح الذين أصروا على عنادهم واستكبروا استكبارا.

ومن استعمالات البغدادي لتقنية التشبيه ما ورد في قوله واصفاً رؤيته للشعر:

إنـــــه الشـــــعر مهـــــبط الـــــوحي فـــــي الأر ض ، ومهـــــد الصـــــفاء للأصـــــفياء

وارتقـــــاب ونشـــــوة تتحـــــدى حالـــــك اليـــــأس فـــــي عيـــــون المســـــاء

وشـــــعاع ينيـــــر ليـــــل الحيـــــارى وشـــــراع يشـــــق درب الرجـــــاء

إنـــــه الشـــــعر بلســـــم الـــــزمن المـــــر ومهـــــد الحنـــــان للبؤســـــاء

نفسه: 63 : 64 .

تنطلق رؤية البغدادي للشعر من إيمانه العميق بقدرته على التأثير في روح القارئ الذي يتخذ من قراءة الشعر وسيلة تتغذّى عليها روحه المتعبة؛ لذا شبّه الشعر بأنه مهبط الوحي؛ سعياً وراء هالة قدسية يريد أن يسبغها على هذا اللون من الفن، ثم يتبع ذلك بصورة تشبيهية أخرى يصف فيها الشعر بأنه مهد النقاء والصفاء الذي تبحث عنه الأرواح المرهقة من أعباء الحياة.

إنّ الشعر ـ عند البغدادي ـ نشوة تتحدّى يأس اليائسين، وتمنح الأمل للذين ينشدون تغيير واقعهم البائس الذي جثم طويلاً على صدورهم، والشعر ـ أيضاً ـ شعاع من نور يضئ الطريق لكل الحائرين واليائسين والتائهين، وهو ـ أي الشعر ـ شراع يعيد التائهين إلى الطريق الصحيح، ويفتح أمامهم أبواب الرجاء بعد أن أرهقتهم ظلمات بحار اليأس في غياهبها.

وقد استفاد البغدادي من تقنية التشبيه معبّراً من خلالها عن اللذة التي يحس بها القارئ لحظة اندماجه مع النص الذي يطالعه وذلك في قوله:

كل قيثارة تردد لحناً عبقرياً مكهرب الإصغاء
هي في هاجس الخيال شفاه من غيوم ورديـة ورواء
فالمزامير والمعازف شتى كالعصافير حول نبع الماء

البغدادي،1999: 64.

يعقد البغدادي تشبيها بين الشفاه الوردية التي تنطق بمعسول الكلمات والشعر الذي يعبّر عن وجدان المتلقي الذي يجد في آفاقه الواسعة براحاً من المشاعر التي تستبد به، وتسلب عقله تماماً كما تفعل الشفاه الوردية حين يستمع إلى معسول كلماتها.

ويردف البغدادي الصورة التشبيهية السابقة بصورة أخرى لا تقلّ روعة عن سابقتها حين يعقد مقارنة بين المزامير والمعازف المختلفة الأشكال والأنواع والعصافير التي تشدو بشتى الأصوات والألحان العذبة على كل غصن وفي كل مكان، وليس الشعر والشعراء بعيدين عن هذا المعنى إذ طالما صدح الشعراء بأنغام كلماتهم التي تهزّ الوجدان، وتلهب المشاعر بعباراتها المتأنقة، وموسيقاها الرشيقة، ولفظها الفخم المعبر عما يجول في وجدان المتلقين.

ومن استخدامات البغدادي للصورة التشبيهية ما ورد في قوله معبّراً عن موقفه من الشعر، وبعض ممن ادعوا الشاعرية وهي منهم براء:

بورك الشعر من حبيب وفي فاق ما في الحياة من أوفياء
تمتطيه الشفاه جيلاً فجيلاً دونما نُفرة ولا إعياء

شـــــاعر إثـــــر شـــــاعر وقـــــوافٍ إثـــــر أخـــــرى تغـــــص بالشـــــعراء

رب شـــــعر قـــــد صـــــار شـــــعراً مـــــراراً مثـــــل لحـــــد القبـــــور لابـــــن العـــــلاء

وقـــــوافٍ علـــــى جمـــــاجم أخـــــرى كبنـــــاء علـــــى بقايـــــا بنـــــاء

فـــــإذا الفلـــــك راســـــيات بقـــــاع ظـــــامئ الحلـــــق دون مـــــوج ومـــــاء

البغدادي،1999: 65 .

لا يترك البغدادي فرصة يمكن أن يعبّر من خلالها عن موقفه من الشعر، وهو في الأبيات السابقة يتّخذ من الشعر صديقاً وفياً يفوق كل ما عداه من الأوفياء في هذه الحياة فلقد امتطته شفاه الشعراء من جيل إلى جيل دون كلل منه ولا ملل، وهو يقرّ هنا أنّ المعاني تتكرّر في الشعر مثل القبور التي تحدث عنها أبو العلاء المعري، فكما أنّ القبر الواحد يمكن أن يدفن فيها أكثر من شخص، ويتكرّر ذلك على مر العصور فإنّ معاني الشعراء وأغراضهم تتكرر من حين لآخر، وإن اختلفت الألفاظ التي يستخدمها هذا الشاعر وذاك.

ووظف البغدادي التشبيه في قوله:

كيـــــف أشـــــدو لكـــــم بصـــــوت جديـــــد لـــــم يباشـــــر مســـــامع القـــــراء

وجميـــــع الأصـــــوات ليســـــت عـــــذارى مارســـــت كلهـــــا فنـــــون البغـــــاء

الـــــدواوين كالمتـــــاحف غُصـــــت بشـــــتات الأفعـــــال والأســـــماء

حُشـــــرت بـــــالحروف مـــــن كـــــل جـــــنس كســـــبايا فـــــي حـــــوزة الأشـــــقياء

البغدادي، 1999: 66 .

يهاجم البغدادي في النص السابق حالة الجمود التي أصابت الكثير من التجارب الشعرية التي أضحت قوالب جامدة لا تحمل عمقاً فنياً يؤثّر في القارئ، ويقدم له تجربة فنية غنية تعبّر عن مشاعره ومشاغله في خضم حياة سيطر عليها إيقاع سريع ومربك أصبحت اللحظات التي يقتطعها قارئ الشعر صعبة المنال.

ويشبّه الشاعر في البيت الثالث الدواوين الشعرية بالمتاحف التي توضع فيها الأشياء القديمة حتى يمرون أمامها دون أن يلمسوها وهو يصف هنا العلاقة المتردية التي أصبحت تجمع بين الشعر والمتلقي حتى لكأن الدواوين الشعرية صارت متحفاً توضع فيه الدواوين داخل صناديق من الزجاج يراها القارئ ولا يستشعر ما فيها.

وفي البيت الرابع يصدم البغدادي القارئ بصورة تشبيهية أخرى حين يشبّه حروف اللغة الشاعرة بالسبايا اللائي وقعن أسرى بين يدي مجموعة من الأشقياء، وهو تصوير رائع لمشكل اللغة مع الكثير من الشعراء الذين يتعاملون مع الشعر على أنه مهنة، ولم يعد للشكل الفني، والقيمة التعبيرية واللفظية مكاناً عندهم؛ لتصبح الحروف مجرد سبايا عندهم يتصرفون فيها كما يحلو لهم.

ومن توظيف الشاعر عبد المولى البغدادي لإمكانات التشبيه مصوّراً صمود اللبنانيين وتماسكهم ضد كل من تسول له نفسه أن ينال من وحدتها واستقرارها، كما يصوّر في البيتين الآتيين حال أعداء لبنان بعد أن تحوّلوا إلى كائنات مدجنة قصم أبناء لبنان ظهره فلم يعد يقوى على فعل أي شيء في مواجهة هذا الطود الأشم، يقول:

تلـــك لبنـــان كـــم تنطـــع فيهـــا جـــامح لا يلـــين إلا بشـــكم

وهـــي كـــالطود عـــزة وشـــموخاً خصـــمها لا يـــؤوب إلا بقصـــم

البغدادي، 1999: 66 .

يشبّه البغدادي جمهورية لبنان بالجبل العظيم الشاهق الذي يقف صامداً ضد كل خصم من خصومها الذين أرادوا النيل من وحدتها واستقلالها وكرامة شعبها؛ فقد عاد كل عدو للبنان من حيث أتى يجرجر أذيال الهزيمة والخسران والهوان بعد أن قصم أبناء هذا البلد ظهره، ولا شك أنّ تشبيه الشاعر للبنان بالطود العظيم رسم صورة واضحة المعالم لهذا البلد الصامد وسط الكثير من الفتن والمآسي والحروب التي مرت به.

وقد استفاد البغدادي من ميزات التشبيه في قوله:

أمـــين العروبـــة هـــل مـــن رجـــاء فقـــد جـــاوز الظـــالمون الحـــدودْ

ونحـــن علـــى مـــا تـــرى مـــن خنـــوع نطـــوق جلادنـــا بـــالورودْ

ونفـــتح أبوابنـــا والقلـــوب إليـــه كخـــل صـــديق ودودْ

وهـــذا لعمـــري حصـــاد الســـلام وآخـــر مـــا يتمنـــى اليهـــودْ

البغدادي، 1999: 128.

يعبّر البغدادي في الأبيات السابقة عن حالة التردي والهوان التي وصل إليها العالم العربي بعد عمليات التطبيع واتفاقيات السلام التي عقدها بعض الزعماء العرب مع الكيان الصهيوني الجاثم على جزء مهم من الأراضي العربية.

وتزداد مأساة الإنسان العربي عمقاً حين يرى أعداءه وقد طوقت رقابهم الورود، وفتحت له أبواب البلدان العربية الواحدة تلو الأخرى حتى لقد أصبح جلاد الأمس الذي أذاق العرب الويلات أصبح خلاً وصديقاً ودوداً إذ نسي العرب أو تناسوا ما حل بهم على يدي هذا الجلاد من نكبات يعاني منها الشعب العربي حتى يومنا هذا.

وظف أسلوب التشبيه في قصيدته " شكرا مندوبة أمريكا " ساخراً من القيادات العربية التي هرولت خلف التطبيع مع الكيان الصهيوني، وقد شبّههم ر في المقطع التالي بالضفادع التي تتقافز هنا وهناك دون أن تسترعي اهتمام أحد؛ لأنهم ضفادع مهترئة، وضعيفة، وعاجزة عن الفعل، يقول:

نجحت مندوبة أمريكا

في القذف بإصبعها الأحدب

.....

فبوخزة إصبعها!

سقط البرقع . بدأ العرضْ

برزوا كضفادع مهترئة

تقفز بين تلال القدس

البغدادي،1999: 120

وقد استخدم البغدادي الصورة التشبيهية في قصيدته " أين حكام العرب؟!" ؛ ليصوّر من خلالها حال الإنسان العربي الذي استحال خروفاً برأس من عجين استحل الجميع دمه وماله وأرضه دون أن يعني له كل ذلك شيئاً ، إنّ العربي في هذا الزمان لا يقدم نفسه للعالم إلا من خلال ضعفه، واستكانته، وبكائه المستمر على أطلال زمن مضى لم يعد له قيمة تذكر في مقابل حال الإنسان العربي اليوم، يقول:

نحن لا شيء ولدنا هكذا صما وبكما

إننا منذ قرون لم نعد نُرهِب خصما

كخراف برؤوس من عجين

همها أن تكسب الرعيان والديدان لحما

فمتى يصحو الضمير الحر فينا يا عرب ؟

البغدادي، 1999 :153:154

ومن توظيفه للتشبيه في رسم صوره ما ورد في البيتين الآتيين حيث يتحدث عن علاقة الود التي تجمعه بأصدقائه ثم لما أراد أن يبين متانة هذه العلاقة بينهم لجأ إلى التشبيه؛ ليزيد صورة هذا الود وضوحاً وتثبيتاً في ذهن المتلقي شبهها بالعقد الذي أبدع صانعه في نظم حباته ليصبح ذا شكل بديع، يزدان في عين كل من رآه.

ألستم أحبائي وأهلي فما اشتكت مشاعركم إلا وفي مهجتي جمر
وكنا كعقد أبدعته أكفنا فجاء كما نهوى وإن عربد النحر

البغدادي، 1999: 225 .

ومن توظيف التشبيه في رسم الصورة ما ورد في قوله:

فكم من صعاليك تصاعد نجمهم وسرعان ما يخبو إذا طلع الفجر
وكم من صناديد عظام تساقطوا كما تسقط الأزهار أو يلجم الصقر
ترى كل من قابلت من كبرائهم يصول وطول الأرض في عينه شبر
يصعّد كالطاووس ذيلاً مزيفاً وفي الوحل قد غاصت مخالبه العشر
بمن أضرب الأمثال منهم وكلهم كأنياب وحش من خلائقها الغدر

البغدادي، 1999: 230

لقد تضافرت مجموعة من الصور التشبيهية في الأبيات السابقة لترسم للمتلقي صوراً واضحة المعالم للمعاني التي يقصدها الشاعر، فقد شبّه الشاعر سقوط الشجاع بسقوط الأزهار، أو بالصقر الذي يلجمه الصياد بعد أن يتمكن منه، وشبه الأرض ـ على طولها واتساعها ـ بالشبر في عين الإنسان المتكبّر الذي يريد الشاعر أن يرسم صورة بشعة له تظهر فيها عنجهيته وغطرسته، وشبهه ـ أيضاً ـ بالطاووس الزائف المدّعي الذي غرته غطرسته فظن نفسه يمتلك ما لا يمتلكه غيره فتاه كبراً وغطرسة، وسعى بين الناس متجبّراً متكبراً لا يهمّه أحد، ولم يترك البغدادي هذه الصورة تمر دون أن يقدم إضافة جديدة لهذا المتكبر حين شبّهه وأمثاله بالوحوش التي تغرس أنيابها في ضحاياها دون رحمة .

لقد تمكن البغدادي من رسم صورة واضحة المعالم للمتكبر الذي اغتر بنفسه، فشبّهه مرة بالطاووس الزائف الذي ارتدى ثوباً ليس له، وشبّهه مرة أخرى بالوحش الفتاك الغادر.

ومن توظيفه للتشبيه ما ورد في قوله:

إيه!! لبنان ما لليلك ساجٍ حائر النجم مظلم مدلهم
جف في حضنك الصنوبر ذعراً واعتراه الردى بعزل وفطم

واســـــتحالت كـــــروم صـــــيدا هشـــــيماً يتهـــــاوى مـــــن أجلهـــــا كـــــل كـــــرْم

فاســـــكبي روحـــــك الحنـــــون عليـــــه كانســـــكاب الـــــردى عليـــــك وضـــــمي

أي ذنـــــــب جنـــــــاه رائـــــــق ورد كـــــان كالســـــحر نافـــــذ العطـــــر جـــــم

حكمـــــة الـــــدهر أن تخوضـــــي صـــــراعاً ظالمـــــاً فـــــي دجـــــى ليـــــالٍ عـــــتْم

البغدادي، 1999: 86 : 87 .

فقد شبّه آلة الربابة بألحانها الشجية التي تنساب ألحانها بين يدي الملحن الذي يداعبها بأنامله فتصدر أنينها كالشفق الدامي لحظة الغروب ، والشاعر لا يخفي التحامه مع الربابة في موقف الحزن الذي يعيشه ، فهو يراها تعبيراً عن آلامه وأحزانه في لحظات غروب شمسه، ولم يكتف بذلك بل عقد صورة تشبيهية أخرى بينه والربابة حين شبّهها بالخل الوفي ففي قوله: "نحن خلان" وهو بذلك يؤكد قوة الرابطة التي تجمعه مع الربابة حين جعل منها صديقاً وفياً يأنس إليه الشاعر، ويبثه أحزانه ومشاعره ، ويعبّر من خلاله عن هواجسه وانفعالاته . ومن توظيفه للصورة التشبيهية ما ورد في قوله:

الشـــــاطئ الســـــتون لاح ولـــــم تـــــزل ترنـــــو إلـــــى الســـــفر الـــــدؤوب حقـــــائبى

أطـــــوي الحيـــــاة علـــــى جنـــــاح قصـــــيدة كـــــالنورس الهيمـــــان دون مصـــــاحب

البغدادي، 1999: 275.

لا شك أنّ الإنسان عندما يتقدم له العمر تتغير رؤيته للأشياء من حوله، ولكن البغدادي وقد بلغ الستين من عمره يرنو إلى المستقبل بهمّة شاب يحمل حقيبته على ظهره مسافراً كالنورس بلا رفيق يهون عليه مشقة السفر الطويل إذ انتفت حاجة الشاعر إلى هذا الرفيق مفضّلاً أن يكمل رحلة الحياة وحيداً.

وقد تمكنت الصورة التشبيهية من التعبير عن الباحث العلمي ومعاناته التي يقاسيها في التعامل مع البحث العلمي المضني، حيث يقضي الكثير من الوقت بين الكتب والأبحاث، ويبذل من جهده حتى يصل لنتائج تخدم المجتمع من حوله، يقول:

أنـــــت فـــــى حالـــــك الظـــــلام شـــــعاع يحمـــــل النـــــور والهـــــدى للبريـــــة

البغدادي، 1999 :369 .

شبّه الباحث العلمي بشعاع النور الذي ينطلق في حالك الظلام ليضيئ الطريق لمن حوله عبر أبحاثه العلمية التي يقدم من خلالها المعرفة للإنسانية جمعاء مضحّياً بوقته وجهده وراحته في سبيل البحث العلمي.

وقد رسم البغدادي صورة للشعر من خلال التشبيه في قوله:

ألـــــــــيس الشـــــــــعر كالبســـــــــتا ن فيـــــــه كـــــــل مـــــــا يغـــــــري
ألـــــــــيس الشـــــــــعر كالأزهـــــــــا ر مـــــــن بـــــــيض ومـــــــن حمـــــــر
فمـــــــــاذا لـــــــــو تعاطينـــــــــا هـــــــ مـــــــن ثغـــــــر إلـــــــى ثغـــــــر
وأســـــــلمنا لـــــــه مـــــــا شـــــــا ء مـــــــن نهـــــــى ومـــــــن أمـــــــر
فـــــــإن رحيقـــــــه كـــــــالعط ر أو أشـــــــهى مـــــــن العطـــــــر
وإن شـــــــــعاعه كالتبـــــــــــ ر واليـــــــــــاقوت والـــــــــــدر

البغدادي، 1999 :13 .

لقد استطاعت الصورة التشبيهية في الأبيات سالفة الذكر أن ترسم صورة لمنظور عبد المولى البغدادي للشعر، فالشعر عنده كالبستان الذي يعج بكل ما هو جميل، وتنبعث من أرجائه شتى العطور التي تريح العقل والقلب والعين، والشعر ـ أيضاً ـ كالأزهار التي تسلب الألباب بجمال أوانها ، وروعة عطورها ، وتمام تنسيقها، والشعر ـ عند البغدادي ـ كالعطر الفواح ينشر رحيقه على مستمعيه فينتشي هذا ويطرب ذاك ، وتختلط المشاعر التي هزّها عزف الشاعر بين ذكريات جميلة وحزينة، أما شعاع الشعر فقد شبّهه البغدادي بالذهب بل كالياقوت بل كالدر الذي يزدان به مستمعوه كما تتزين النساء بالذهب والياقوت والدر.

إنّ الشعر عند البغدادي ينبغي أن يكون متنوّعاً في موضوعاته كالبستان الذي يزخر بكل أنواع الثمار والفواكه والأزهار ، وأن يكون كالزهرة المتناسقة في جمال ألفاظه ، ورشاقة معانيه، وسلامة أبنيته، وسلاسة انتقاله من موضوع لآخر ، وأن يكون كالعطر الجميل الرائحة في انتشاره بين الناس في يسر وسهولة كما ينساب العطر الزكي بين الحضور في أي مكان ، فتحتفي به الأرواح قبل الألسنة ، فلا يكون سمجاً أو فظا أو غليظاً أو سفيهاً ينفر من القارئ كما ينفر الناس من الروائح الكريهة، والشعر عند البغدادي يجب أن يكون نفيسا كالذهب ، وثميناً كالياقوت، وفاخراً كالدر ؛ ليحفظ لنفسه مكانته الرفيعة بين الناس فلا ينبغي على الشاعر أن يقلّ من قيمته الفنية أو الشخصية حتى يظلّ كالذهب لا يلحقه الصدأ .

أخيراً..... فقد لعب التشبيه دوراً أساسياً في ديوان "على جناح نورس" حيث أسهم بقسط وافر في رسم صور الشاعر عبد المولى البغدادي، وتمكن من توكيد أفكاره، وإيصال مشاعره، وتشكيل رؤاه الفنية العميقة عبر توظيفه لهذا اللون المتميز من البيان، الذي يفسح المجال أمام الشعراء للتعبير عن مكنونات أنفسهم من خلال ما يوفره لهم من تقنيات تعبيرية متنوعة، تدفع بتجاربهم الشعرية إلى آفاق من الغنى، والتعبير الفني لم تكن لتتاح لهم إلا من خلال التشبيه.

الخاتمة

من خلال دراسة الدور الفني للتشبيه في ديوان: "على جناح نورس" للشاعر: عبد المولى البغدادي يتضح الآتي:

ـ وظف التشبيه توظيفاً متكاملاً في هذا الديوان حيث إنه استعمل كل أشكال التشبيه المعروفة ليقدم صوره إلى القارئ عبر تقنيات التشبيه.

ـ تمكّنت تقنيات التشبيه من رسم الصور التي أراد البغدادي أن يقدمها لقارئه، وقد أسهم ذلك في مد خيال القارئ بما يلزمه من محفزات تستفز لذة القراءة لديه.

ـ شكّل التشبيه جزءاً مهماً من تجليات الصورة في ديوان "على جناح نورس" فقد وظّفه الشاعر على نطاق واسع في الكثير من قصائد الديوان.

ـ تفاوتت الصور التي وظف فيها عبد المولى البغدادي التشبيه بين الصور المعقدة والبسيطة بحسب الحالة الشعرية، وما تقتضيه موهبة الشعر في كل صورة.

ـ أفصحت الكثير من صور التشبيه عن براعة البغدادي في توظيفه لهذا الجزء من الصورة الشعرية من خلال ديوانه "على جناح نورس" الذي يزخر بالكثير من صور التشبيه التي عني الشاعر بتوظيفها في قصائد الديوان الكثيرة.

ـ شكّلت الصورة الشعرية ـ بشكل عام ـ جانباً أصيلاً من تجربة الشاعر عبد المولى البغدادي الشعرية في هذا الديوان، وأسهم التشبيه بفعالية في رسم الصورة المبتغاة في كثير من المواضع التي وظفه فيها.

ـ استطاع الشاعر البغدادي أن يؤكد معانيه ورؤاه ومضامينه، وأن يعبّر عن الكثير من هذه المعاني عبر توظيف خاصية الإيجاز التي يوفرها له التشبيه.

ـ تنفتح نصوص ديوان "على جناح نورس" لـ عبد المولى البغدادي على دراسات وأبحاث متعددة؛ نظراً لما تحمله من غنى فني، وتصويري، وتركيبي، وتنوع موسيقي، يمنح الباحثين فيه مجالاً واسعاً للدراسة والبحث.

والله ولي التوفيق

المصادر والمراجع

1. البغدادي، عبد المولى. على جناح نورس، تقديم: سعدون السويح، دار الكتاب الجديد المتحد، ط1، 1999 م.
2. الجرجاني، عبد القاهر. أسرار البلاغة، تحقيق: محمد شاكر، دار المدني، جدة.
3. الجويني، مصطفى الصاوي. البيان في فن الصورة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1993م.
4. حسين، حامد. البلاغة والمعنى في النص القرآني، ديوان الوقف السني، 2007 م.
5. حميداني، حميد. أسلوبية الرواية، عالم الكتب، مقاربة أسلوبية لرواية زقاق المدق لنجيب محفوظ، الأردن، ط1، 2008 م.
6. الخويسكي، زيف. و المصرى، أحمد. رؤى في البلاغة العربية، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، 2004 م.
7. الداية، فايز. جماليات الأسلوب، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط2 ، 1996 م .
8. الرباعي، عبد القادر. الصورة الفنية في النقد الشعري، دار العلوم للطباعة والنشر، ط1، 1984م.
9. ابن رشيق القيرواني. العمدة في محاسن الشعر ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، ط3، 1964 م.
10. الزمخشري، الكشاف، تحقيق: مصطفى حسين أحمد، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1946 م.
11. السكاكى، مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، لبنان 2002.
12. ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تحقيق: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، 1984 م ..
13. عباس، فضل حسن. أساليب البيان، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ط2007،1 م.
14. عباس، فضل حسن. البلاغة فنونها وأفنانها، دار الفرقان، الأردن، 1987 م
15. العسكرى، الصناعتين، تحقق: علي محمد، ومحمد أبو الفضل، المكتبة المصرية، بيروت، ط2002،1م.
16. عطية، مختار. علم البيان وبلاغة التشبيه في المعلقات السبع، دار الوفاء، الإسكندرية، م2004.
17. فيود، بسيوني عبد الفتاح. دراسات بلاغية، ط1 ، 1989 م .
18. القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: مجدي السيد، المكتبة التوفيقية، مصر، القاهرة.

19. القزويني، الخطيب. تلخيص مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت.

20. مكليش، آرشيبالد. الشعر والتجربة، ترجمة: سلمى الجيوسي، دار اليقظة العربية، بيروت، 1963.

21. ابن منظور، لسان العرب، نسّقه وعلّق عليه: علي شيري، دار إحياء التراث، بيروت، مادة شبه.

.

جامعة بنغازي
كلية التربية